أقصى الجنوب

احمد فخري علي

كفٌ ساعداه عن الجذف ، تطلع حوله ، للمساء ملمس أفعى حذرة ، تكاثف في أعماقه حزن غامض ، أدرك أن المساءات الفائتة لم تكن بهذه القتامة ، لم تبعث فيه حزناً كهذا الحزن الذي يقبض القلب ، بل ان بعضها كان يشع فرحاً لذيذاً ناعماً يلتف على النفس كوشي شفاف ، فرح ربما تغيب تفاصيله ، تختفي أو تتلاشى ، لكنه لا يبرح القلب ، له فورة الأشياء وتوهجها ، توترها وجموحها ، سيلانها المنعش في مسامات الوحدة والانعزال . كانت غابات القصب تسيّج البصر عند حافة المياه البعيدة ، ظل كفاه ساكنين وهما يطبقان بأصابع مرتخية على المجذاف الذي ينغرس طرفه الآخر في الماء ، الزورق ما يزال يشق صفحة الماء الخضراء المتقوقئة ويتباطأ شيئاً فشيئاً . قال لنفسه ، أنت تعرف السبب !! هل تبغي النسيان !؟ إنك لا تستطيع أن تنسى !!

أفكار بدأت تدكن منذ ثلاثة أيام كغيمة رصاصية تستقطب شتات غيوم آخر . هل تستطيع أن تنسى ؟! انبثق في رأسه وجه أبيه ، تفوه بصوت ممطوط معباً بغضب دفين ، هاه يا هدّاي !! تريد أن تشعل النار بين العشائر !! ثم راح يداعب لحيته البيضاء بقلق ، منتظراً الرد ، ثم بعد صمت قصير قال : إرحل إلى الهور وعش هناك شهراً أو شهرين لعلك تنسى .

إرتعد في دخيلته غيظ مكتوم ، تمتم بحقد : أهي حقاً تحب سويلم !! ثم قال في سره : لا أريد أن أنسى ، لا يهمني كلامه ، بيني وبين عشيرة الكرابلة نار لا يعلمها إلا الله !!

الموجات تلثم مقدمة الزورق ثم تتلوى منسرحة لماعة ، اندس عنق الزورق بين سيقان البردي الهشة متوقفاً ، خشخشت أجساد صغيرة في القصب الكثيف ، تخبطت ، فرت حذّافة مذعورة وحلقت في الفضاء الأزرق ، تبعتها أخرى ، ثم أخرى ، رمق الفالة المنطرحة في بطن الزورق ، تمنى لو يهدأ في رأسه جنون الأفكار ، ينقطع تدفق الهواجس الواخز ، ووجهها يأبى أن يغادر رأسه ، يعاند عناداً قاسياً موجعاً ، وجه تطوقه فوطة سوداء وتضيئه ضحكة مرحة ، غير أنه في بعض الأحيان يكفهر كغيمة تنذر بالمطر ، تتقلص سحنته امتعاضاً ، كانت البقرة قد استسلمت أخيراً بعد أن خارت ورفست ، راحت أصابعها البضة تستدر الحليب من الثدي الوردي الكبير ، ولبث ينظر إليها من بين الأبقار الواقفة ، انتبهت إلى وقفته المتلصصة لكنها لم تلتفت إليه ولم تعره اهتماماً ، وخيل إليه أنها زمّت شفتيها استخفافاً ، ثم خامره شعور في أنها لم تكن قد فعلت ذلك . وراح يستعيد في رأسه أحداثاً مضت ، صوراً من ذلك الماضي المنتهك ، كأن تركض وهي طفلة تهش الأبقار بالعصا أو تعد الشاي وتهتم بشؤون البيت وهي صبية يانعة ، يسمعها كلماتٍ ودودة تبشر باليوم المنشود فيتضرج خداها بحمرة الحياء ، ترتعش الوجنتان ارتعاشة خجل وتظل العينان ثابتتين في نقطة ما كأجمل عينين ، بل هما أجمل من كل ما رأى من العيون ، فيهما بريق حياء أو ربما شوق خفي ، تنم نظرتهما عن طهر وبراءة ، كأنهما لم يحتضنا وجه سويلم بلهفة المحبين ، قال لنفسه لائماً ، أين كنت قبل أن تقع الشاة في حلق الذئب !! اندلق في أعماقه شعور بالوحشة في هذا الهور الشاسع المصمت ، قال في سره ، سويلم الكربولي !! أخ يا سويلم ، صياد نساء ماكر ، يحل ضيفاً في مضيف الحاج خيون ، يتغدى ويشرب القهوة ثم يتحدث بلسان لا يكل عن الكلام ، كأنه عليم بكل صغيرة وكبيرة !! ينسب لنفسه بطولات لم يشهد فيها أحد ، بطولات غير مؤكدة غرضه منها التباهي أمام الحاج خيون ، ما الذي أغواك فيه يا زهرة !؟ صياد نساء يتنكر بزي الضيوف ، لم يعرف أحد منا غايته اللعينة المبطنة ، رجل يعرف كيف يخبىء أسراره ، ما الذي أغواك في هذا المتباهي !؟ عقاله مائل إلى جبهته بزهو ، قميصه تحت الصاية أبيض نظيف ، تنحدر عن كتفيه عباءة مذهبة الحواشي ، أقطع يدي إن لم أقتلك بها يا سويلم الكربولي ، ولكن !!

ـ أولست ابنة عمي يا زهرة !!

قطبت سحنتها ، تعكرت عيناها باعتراض ما ثم نطقت بصوت مرتعش :

ـ مالك حق يا هدّاي ، لقد تم عقد القران .

ـ مالي حق !! سأقلب الدنيا !!

زاغت عيناها محاذرة غضبه ثم انصرفت حاملة قدر الحليب ، لبث واقفاً يفرك يداً بيد ودخان الغيظ يتصاعد في أعماقه ثم فاه بحنق :

ـ زين يسويلم !!

نهض بجسد متشنج يتوثب للعراك ، اهتزت مؤخرة الزورق تحت قدميه اهتزازات هادئة لينة ، نظر بعينين كدرتين إلى الماء الأخضر المتقوقىء ، لسعه إحساس في أن الكرابلة يقيمون الآن عرسهم الكبير ، الذبائح تسلخ والنار موقدة تحت القدور ، عرس يحضره وجهاء العشائر والمدعوون من القرى الأخرى ، وفي الفضاء تفرقع البنادق ابتهاجاً ، قال في سره بتحد ، هل تحميك الكرابلة يا سويلم !! عدل من وضع كوفيته المرقطة ، مدّ إلى الأفق الغربي بصراً كئيباً فالتمّت غضون في جبهته ، كانت الشمس تسقط وراء غابة القصب مخلفة حمرتها ، وفي العمق الأزرق تحلق طيور الغاق البيض بشكل دائري مشرعة أجنحتها كما لو أنها تتأهب للهبوط . لكن فراغاً شاسعاً يفصلها عن ذوائب القصب الذهبية وأطراف البردي الكثيف الذي تكفي ارتفاعاته لاختفاء جاموسة أو خنزير ضخم ، شعر بجوع مفاجىء ولكن دون ما شهية للأكل ، صرة الخبز ما زالت تحت دلة الزورق ، لم يمسسها منذ الصباح الأزرق حيث ابتدأت رحلته في النهر ◀

المتلوي بين الأحراش ، قبل أن تنهض الشمس فوق غابات النخيل فتذيب الندى المعلقة قطراته في الأشواك البرية والأعشاب الرقيقة وأوراق الغرب المنهدلة وأهداب الكلاب المقرورة المنزوية في جحورها .

تساءل في سره ، أين ولى الصيادون !؟ اهتاجت في أعماقه رغبة في أن يحدث انساناً ، أي إنسان ، في هذا السكون الصمغي الواسع ، إنه موسم الأسماك ولكن . . أين ولوا !؟

عذاباته تتفجر بصمت ، ثمة نكهات تلامس حواسه ، تعيد إليه قدراً ضئيلاً باهتاً من طمأنينة مستلبة ، رائحة الطيور المائية ، نكهة جذور الأدغال الموحية بمكامن الأسماك ، ترى أين هي الآن !؟ ربما تجلس فوق سريرها ، يزينها ثوب العرس ، عيناها مكحلتان ، من جسدها يفوح المسك والخضيرة ، تترقب دخوله عليها محاطاً بأهازيج الرجال وزغاريد النسوة ، تنتظر دخول سويلم !! الكلبة تنتظر سويلم !! يقتلني الله إن لم أقتلك يا سويلم الكربولي !! أرهف السمع ، ثمة صوت رخيم النبرة يخترق السكون اختراقاً ناعماً لذيذاً :

حبيبي يبتعد عني ،
حاملاً قلبه وطيوبه إلى إنسان آخر
ولا حيلة لي غير الحزن
أأبكي !؟
البكاء ليس من شيم الرجال
يا لقسوة قلبه !!
لقد فارقني دونما وداع

وتركني أرقب دجاج الماء السابح المتآلف

مسَّ الصوت قلبه مساً لطيفاً ثم احتواه بعنف ، تساءل في سره ، أين أنت يا هذا !؟ ثم قال لنفسه ، لا أريد أسماكاً . . رزقي صوتك يا هذا الذي تهيّج الأحزان وتداويها !!

وكان الصوت قد تراخى ثم انقطع ، التأم السكون الواسع كأن لم يخترقه ذلك الصوت الساحر المتفجر بالرغبات ، خمن أن سمكة ملعونة قد لفتت انتباه الرجل فقطع غناءه ، لكن الصوت على أية حال ، ينبع من جهة الشمال ، إنه آت من ذلك البعد ، قال ذلك لنفسه ثم غرس المجذاف في الماء وجذف دافعاً الزورق إلى الوراء ، ارتجت صفحة الماء وراحت أوراق الخباز الحمر الطافية تغطس برهة ثم تدفق متأججة فوق الموجات الطفيفة ، شرع يجذف بهدوء ولكن باتقان يضمن للزورق سرعة لا بأس بها متجهاً صوب الشمال .

كان الظلام يتدفق في فضاء الهور مثل بخار أسود يتكاثف شيئاً فشيئاً فوق الماء وغابات القصب والبردي والأدغال الكثيفة ، وكان الزورق يدلف في شوارع مائية تعرشها نباتات القصب المتشابكة ، ما أن ينتهي من شارع حتى تستقبله شوارع أخرى ضيّقة أو متعرّجة تنتهي عند مستنقعات فسيحة أو أحراش كثيفة النبات . يتوقف في بعض الأحيان مرهفاً السمع ، متنصتاً ، تستفزه أجنحة الطيور التي تفر فجأة من أوكارها مخترقة الظلام المتماسك ، ثم يعاود الجذف مسترشداً بالنجوم اللامعة في أعماق السماء ، لكن الصوت لم يعد له أثر ، ضاع في جنبات الهور المجهولة كما تضيع قطعة نقود في جب عميق مظلم .

بغداد

مؤلفات

حنا مينه

من منشورات دار الآداب

□ الشراع والعاصفة	رواية		رواية
□ المصابيح الزرق	»	□ المرصد	»
□ الثلج يأتي من النافذة	»	□ حكاية بحار	»
□ الشمس في يوم غائم	»	□ الابنوسة البيضاء	(قصص)
□ بقايا صور	»	□ ناظم حكمت : السجن ، المرأة ، الحياة	
□ المستنقع	»	□ ناظم حكمت ثائراً	